في الذكرى الـ«46» لاستشهاده:

الزبيري.. دهشة الشعر.. وعظمة النضال الوطني

■ ولد بصنعاء ١٩١٩م وتعلّم بها واستكمل تعليمه في المدرسة العلمية ثم في الجامع الكبير وحفظ القرآن وأطال اعتكافه بجامع قبّة المهدي القريب من سكنه فظلت ميوله دينية دائماً مع اعتدال كبير بعد رفقته لشقيق روحه الأستاذ/ أحمد محمد نعمان منذ ١٩٣٩م إلى ١٩٧٥م واستشهد في قرية برط القريبة من مدينة صنعاء.

وقد كان طيباً وديوداً كريماً وطنياً أديباً شاعراً مناضلاً عنيداً صبوراً على السجون والقيود والتشريد، زاهداً محبوباً ومرجعية لكل أطراف فئات الأحرار، وأباً لكل معارفه ولكل الأحرار.

وكان عدواً للظلم والظالمين حتى لقي وجه ربه وهو يناهض الاستبداد.. كما كان مناضلاً حتى الحروب وسفك الدماء مع أريحية نادرة في العلاقات الأخوية ومرحاً بما لا يتعارض مع جدية وطهارة سلوكه وتديُّنه الأصيل.

■ الزبيري والنعمان ثنائي في مواجهة الأئمة حتى اندلاع ثورة 26 سبتمبر

■ الزبيري تفرَّغ لتنمية الوعي التحرري والوطني للطلبة اليمنيين في المهجر

وله قصائد رائعة المعنى والمبنى في الإمامين يحيى وأحمد حتى اضطر في بعضها للمبالغة، إما طامعاً في إقناعها بالإصلاح والعدل أو مضطراً لإطلاقه من السجن كقوله في قصيدته العينية للإمام يحيى وهو بسجن الشبك بالأهنوم:

من أين يأتيك العدو وأنت
في بلد تكاد حجارها تتشيعُ
بالله لو حاد امرؤ عن أمركم
لم يؤه إلا التفرنج موقعُ
هب لي بقية مهجة أحيا بها
إني لأرضى بالقليل وأقنعُ
دعني لساناً عن جنابك ذائداً
أو لا تعبد من عبيدك طيُّعُ

كذا قصائده في ولي العهد أحمد بن الإمام يحيى بتعز كقوله:

إليك وإلا يا تُرى أين نذهب
فليس لنا في الكون إلاك مهربُ

وقوله:

يهنأ لك العرش الذي أنت شدته
وكونته من أكبد وجماجم

وللأمانة فإن تلك القصائد الحنّانة الطنّانة التي نظّمها في الإمامين كانت أروع ما نظّمه على الإطلاق، رغم قصائده الوطنية البديعة.. وبطول ملازمتي له وقيامي بتهيئة ديوانيه «صلاة الجحيم» و«ثورة الشعر» للطباعة ومحاولتي بإلحاح لينشر تلك القصائد الإمامية ليس فقط لأنها بالغة الإبداع ولكن أيضاً لأنها قد كانت مهما كان الإمامان سيئين أو حتى لا يستحقانها فرفض بشدة وكنت اقترحت تسميتها بالإماميات أو بشعر المراهقة الشعرية فقال بل إنها وثنيات ولن أنشرها وقد بادر فعرض بها في مقدمة ديوانه «ثورة الشعر» وقال أنه أراد بتلك المبالغات في مدائحها ليعلم العالم العربي وغيره كم كنا مرغمين على ذلك وقال ؟ رحمه الله ؟ أنه يكمن في طي تلك المبالغات تشهير بهذين الطاغيتين اللذين أرغمانا على الإتيان بمثل تلك المدائح.

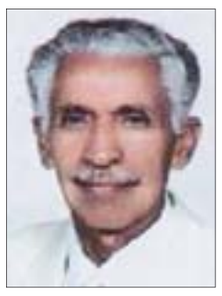

كتب اللواء/ محمد علي الأكوع

ولكم هو مؤسف جداً غياب عشرين عاماً من حياته الأولى بحيث لم تجد إلا قصيدته في تقريض كتاب «الأزهار» للقاضي أحمد قاسم العنسي مع نثر جيد في الإشادة بالكتاب عن المذهب الزيدي!!

ولو أني سألت أستاذي النعمان عن بدء علاقتهما الوطنية لربما ظلت أكثر فترات حياته مجهولة.. فقد قال لنا الأستاذ بأن أول لقاء عابر بينهما عام ١٩٣٦م بتربة ذبحان الحجرية حيث جاء الشاب الزبيري مع والده القاضي محمود برفقة أمير تعز علي عبدالله الوزير وسيف الإسلام القاسم بن الإمام يحيى ليطلعنا على حقيقة مدرسة الأستاذ النعمان الحديثة التي أزعجت الإمام يحيى، وكان لقاء عابراً، ثم تطورت الأحداث فيتنكر الإمام يحيى لبيت الوزير فيضطر الأمير علي الوزير للرحيل للسعودية ومعه ولده عبدالله والقاضي محمد محمود الزبيري زميله وجاره بحارة بستان السلطان، ثم ارتحل الشابان إلى مصر للدراسة فيفاجأ الأستاذ الشيخ أحمد محمد النعمان بوصول الزبيري إليه إلى الأزهر فبدأت الزمالة الوثيقة التي أسست الحركة الوطنية النضالية ضد الأئمة والإمامة، واستمرت طويلاً في أخوّة وصداقة إلى حد التماهي، وإلى الآن فلا يذكر الزبيري إلا وذُكر النعمان والعكس كذلك.

ولم تشب زمالتهما في النضال شائبة قط اللهم إلا في حالة قرار الأحرار بعدن للعودة إلى صنعاء ١٩٤٨م إثر اغتيال الإمام يحيى وقيام الثورة الدستورية، حيث كان المختلفون مع الأستاذ النعمان يجدون الأستاذ الزبيري هو الوحيد الذي يقف في صف الأستاذ النعمان، فيقوى موقف النعمان ويقول ما دام القاضي الزبيري بصفي فلا تهمّوني جميعاً، وهذا يدل على علو مكانة الأستاذ الزبيري عند الجميع ولكن في ذلك اليوم الذي كان فيه رأي النعمان بأن يبقى بعض الأحرار بعدن لتستمر الحركة الوطنية ويعود البعض إلى صنعاء، ولكن نشوة الخلاص من الإمام يحيى وقيام الثورة الدستورية بصنعاء، والأشواق إلى الأهل والوطن قد دفع الجميع إلى الإصرار على عودة الجميع، مع أن رأي الأستاذ النعمان لم يخصص من يعود ومن يبقى حتى لو قالوا بأنه ممن سيعودون، إضافة إلى قوله بأن الوضع في صنعاء غير واضح تماماً ومن جهة أخرى لعلم الجميع بأن الجيش وغالبية الشعب مؤيدين للإمام، وأخطر من ذلك فشل محاولة اغتيال ولي العهد بتعز.. لهذا أصر الجميع على أن لا يبقى أحد بعدن لأن صنعاء بحاجة إلى الجميع حتماً، فالتفت الأستاذ النعمان إلى الأستاذ الزبيري عله يسنده كما اعتاد منه ذلك ولكنه خذله وزاد فقال بأن من لا يعود إلى صنعاء الثورة فهو خائن فانقهر الأستاذ النعمان لذلك، وكان المتفق عليه بأن يمر بعضهم عن طريق الضالع – البيضاء – رداع – ذمار ؟ صنعاء ؟ بقصد الاستعانة بعدة آلاف من قبيلة السلطان الشيخ حسن الرصاص الذي سبق ووافق على ذلك مع الزميل الأستاذ محمد الفسيِّل رسول الأحرار إليه، وهنا عاند الأستاذ النعمان فقال إذاً فلنسافر عن طريق تعز مباشرة ولن أتأخر حتى لو وصلت إلى جهنم، وكان من سوء حظه أن قُبض عليه بذمار مع القاضي أحمد العنسي ومحمد الفسيّل والشيخ جازم الحروي ووالد صالح عبده الدحان وغيرهم وسبقوا مشياً إلى صنعاء والأغلال الحديدية بأعناقهم.

أما الأستاذ الزبيري فقد سافر إلى صنعاء بالطائرة مع سيف الحق إبراهيم بن الإمام يحيى فنجا من الاعتقال وعُيِّن وزيراً للمعارف، ثم نجا من الإعدام بعد سقوط صنعاء بيد القبائل لصالح الإمام أحمد بصدفة طيبة حيث لمّا ضيقّت القبائل الحصار على صنعاء فانتدب الزبيري والورتلاني وعبدالله علي الوزير إلى السعودية بقصد استعجال وصول وفد الجامعة العربية برئاسة أمينها العام عبدالرحمن عزّام، فسقطت صنعاء والزبيري وزميلاه بالسعودية، وكان الملك عبدالعزيز قد أخّر وفد الجامعة عوناً منه للإمام أحمد لئلا تقوم ثورة باليمن المجاورة لبلاده.

ثم توجّه الزبيري وابن الوزير إلى الهند حيث لم تقبله أي بلد عربي، ثم عاد إلى باكستان بعد أن ذاق مرارة التشرد والفاقة بالهند حتى وجده سفير الأردن عبدالمنعم المجالي في الشوارع الخلفية يبيع أقفالاً ونحوها في كرتونة ربطها إلى عنقه فهرب منه، ولكنه بباكستان تيسَّر له الشيخ عمر بهاء الأميري سفير سوريا فعرَّفه على مفتي باكستان الشيخ شبير فساعده لكسب قوت يومه حتى يكون له برنامج إذاعي أسبوعي من إذاعة باكستان، ومن العجائب أن الإمام أحمد كان يحرص على سماع أحاديث الزبيري، ثم يغضب من فحواها التي تفضح حكمه، فيركض الراديو حتى ينكسر، ولكنه يعود سريعاً فيطلب راديو آخر قائلاً: هاتوا راديو لأسمع ما يقول هذا الشيطان الزبيري!!

ثم قامت ثورة عبدالناصر بمصر فوصلها ورحّب به فيها فافتتح فرعاً للاتحاد اليمني بالقاهرة عام ١٩٥٢م والذي كان الإتحاد اليمني الرئيسي قد أنشئ بعدن عام ١٩٥١م من قبل الأحرار وبمقدمتهم عبده عبدالله الدحان، وعبدالقوي الخرباش، فنسق مع الأحرار بعدن واستقطب عشرات الطلبة اليمنيين بمصر، وجاءه الأستاذ النعمان مناصباً للإمام أحمد الذي لم يحمد له مناصرته له ضد انقلاب الثلايا والسيف عبدالله عليه عام ١٩٥٥م بل هدده بالقتل لأنه صرّح بالقاهرة بأن الإمام سيصدر دستوراً ويطوّر اليمن.

يتعاون الزبيري والنعمان من جديد، فأصدرا صحيفة «صوت اليمن الثانية»، وبرنامجاً أسبوعياً بصوت العرب الإذاعية، وقاما بنشاط دعائي بكل الوسائل سواءً بتوصيل صوت اليمن إلى الداخل وإلى كل المهاجرين أو بالمنشورات والرسل والرسائل.. كما طلبا من كثير من الأسر إرسال أبنائهم للدراسة بعدن أو مصر أو الكويت أو سوريا، فتوارد آلاف الشباب للدراسة ورفعا وعيهم الوطني ضد حكم الأئمة والإمامة وحثهم على جدية التحصيل العلمي في شتى الاختصاصات الدراسية ليكونوا جيشاً عرمرماً مجنّدين لتلبية الوطن عند قيام الثورة والجمهورية في شتى الاختصاصات الإدارية والعلمية بكل مرافق الدولة وهذا ما أسعف أجهزة الدولة في الثورة والجمهورية لملء ملاكاتها المختلفة بدلاً من الكوادر التقليدية الإمامية التي لا تعرف اللغات والإدارة والتخصصات ومختلف العلوم والتقنيات الحديثة.

وهنا تفرّغ الأستاذ الزبيري لتنمية الوعي التحرري الوطني في محيط الطلبة وفي المهاجر وبالداخل بشتى الوسائل.. كما تفرّغ الأستاذ النعمان لنشر أسباب التعليم، فرحل إلى عدن للتعاون مع زميل دراسته بالأزهر الشيخ محمد بن سالم البيحاني بإنشاء المعهد العلمي الإسلامي، ثم إنشاء كلية بلقيس اللذين استوعبا آلاف الطلاب من عدن والمهاجر ومن داخل اليمن.

وقد ظل الزعيمان على اتصال بالنظام المصري بعهد عبدالناصر لمساعدة اليمن واليمنيين ضد العهد الإمامي الذي دفعه غباؤه للمساهمة في تحريض نظام عبدالناصر ضده وضد الإمامة من أساسها بعد أن ناور الإمام أحمد بدخوله في اتحاد الدول العربية مع الجمهورية العربية المتحدة، ثم نكص على عقبيه فهاجم عبدالناصر وعهده في قصيدة رديئة النظام يجعل كل بيت على قافيته مستقلة وعنوانها:

نصيحة تهدى إلى كل العرب
ذوي البطولات العظام والحسب
نصيحة تحرك الضمائرا
وتوقظ القلوب والمشاعرا

ومنها:

قانوننا شريعة الإسلام
قدسية الأوصاف والأحكام
ليس بها شائبة من البدع
تجيز ما الإسلام عنه قد منع
في أخذ ما للناس من أموال
وما تكسبوا من الحلال
بحجة التأميم والمعادلة بين
ذوي المال ومن لا مال له

وقد كان أعتقه الإمام بأن عبدالناصر قد وقف معه من أجل إيقاف نشاط الاتحاد اليمني ومنع الأستاذ الزبيري من إذاعة مقاله الأسبوعي من صوت العرب وأوقفت صحيفة صوت اليمن.. ولكنه لما نشر قصيدته ضده عاد عبدالناصر لتأييد الحركة الوطنية اليمنية، ونشطت المخابرات المصرية في تهيئة وتحريض الضباط الأحرار سواءً عن طريق القائم بالأعمال محمد عبدالواحد بالسفارة المصرية أو من كان بعضهم في الكليات الحربية والشرطة المصرية أو في المدارس العسكرية المصرية بصنعاء عن طريق الضباط المصريين عبدالله حامد ومحمود عبدالسلام والمحرزي وغيرهم، وكان للزبيري والنعمان الفضل الأول في نشر الوعي الوطني وكشف عيوب الحكم الإمامي منذ عام ١٩٣٦م ولقيا في سبيل ذلك العنت والقهر والسجون والتشريد والقيود والتنسيق بين الفئات الوطنية في شتى مناطق اليمن وفي عدن والمهاجر الأخرى، وكان لقصائد الزبيري أصداء عظيمة لرفع الروح الوطنية التحررية في مجاميع عريضة في الداخل والخارج، كما كان لصحيفة صوت اليمن آثار كبيرة أيضاً.

ومرت السنون وعرش آل حميد الدين يهتز ووعي الناس يزداد حتى أصبح المناخ الوطني قابلاً لما تنذر به الأحداث ضد الأئمة والإمامة وتلاشى التضليل على الشعب الذي كان قبل ثورة الدستور عام ١٩٤٨م وضعف حماس التشيع في الإمامة الذي كان على أشده حتى استباحت القبائل نهب صنعاء بعد اغتيال الإمام من أهل صنعاء الذين هيأوا للقبائل ذلك الاكتساح لصنعاء وهزيمة تلك الثورة التي ذهب ضحيتها ما يربو على ستين شهيداً، ولكن أواخر عام ١٩٦١م بدت بشائر انهيار عرش وصولة الإمام أحمد حيث تجرأ ثلاثة من صغار ضباط الجيش المتوكلي بمحاولة اغتيال الإمام أحمد وهم العلفي، واللقية، والهندوانة في المستشفى بالحديدة ولكنه لم يمت جسدياً وإنما مات معنوياً وسلطوياً، فظل ثمانية عشر شهراً معوّقاً تنزف دماؤه في عذاب شديد حتى كان يتمنى الموت خيراً مما كان فيه وفي هذا المناخ تعاظمت روح الثورة في نفوس الضباط الأحرار الذين كانت تؤازرهم جموع كثيرة من الشعب ومن خلايا وطنية تتواصل مع بعضها ومع نظام جمال عبدالناصر الذي وعد الثوّار بالتأييد الفوري بعد إطلاقهم للرصاصة الأولى في قلب النظام الإمامي.

فكانت الثورة العظيمة ليلة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢م في صنعاء بضرب قصر آخر الأئمة محمد البرد بن الإمام أحمد حميد الدين.

وكان الشهيد الزبيري أول من استعد للعودة إلى صنعاء الثورة، فوصلها رافداً لها بشعره ونثره وبالمشاركة الفعلية بنفسه في المعارك، وقد انفجر في المدرعة التي كان عليها مع آخرين بقاع صنعاء وهم بطريقهم إلى خولان لمقاتلة الملكيين بل ظل يشارك في المعارك بجسارة فائقة، وقد أوفى عبدالناصر بوعده لنصرة الثورة والجمهورية.. ولكن الاستعمار والرجعية العريضة التي تكاتفت مع البدر المخلوع جميعها تمده بالذهب والسلاح والقبائل المستجيبة لذلك فظلت الحرب قائمة ضد الثورة والجمهورية حتى جاءت سنة ١٩٦٥م فلم يهن على الشهيد الزبيري أن تظل القبائل اليمنية تحارب الثورة والجمهورية مع الجانب الملكي تحت أطماع الذهب والسلاح بحيث لم يبقَ مع الثورة إلا قبيلة حاشد وبعض من قبائل همدان ونهم والحداء والحرس الوطني إلى جانب الجيش المصري.. فبادر الأستاذ الزبيري بتزعم وفد وطني عالي المستوى من زملاء النضال الكبار معه إلى الخروج لخوض معركة أخطر من معارك القتال وهي الاتصال بتلك القبائل الملكية مباشرة فأقنعها واحدة إثر أخرى للكفّ عن القتال في صف الملكية بعد إيضاحه لهم بخطأ مواقفهم وأن زمن الإمامة قد ولّى مهما كابر الاستعمار والرجعية في مناصرتها، وكان من وفاء القبائل وتقاليدها الأصيلة أن استضافوه وزملاؤه النعمان والإرياني والفسيّل وغيرهم من أعلام المناضلين فأمّنوهم وسلّموهم بحراسات قوية من قبيلة إلى أخرى فأزعج صدى مشروعه السلمي أنصار الإمامة والرجعية والاستعمار وعلموا بأنه بذلك سيهزم كل مشاريعهم وكل إمكانياتهم الكبيرة الواسعة ما دام أمكنه إقناع أكثر القبائل بالمنطق وبإيضاح مصلحتهم في السلم وبزوال الإمامة، وأيقنت الرجعية بأن مفعول منطق الزبيري أقوى وأخطر من الجيش المصري الذي تعداده سبعون ألفاً مع أسلحتهم الكبيرة والطائرات والجيش اليمني وقوة القبائل المناصرة للثورة إذا استمر في نشر رسالته عند القبائل في أن يناصروا الثورة والجمهورية ورفض الملكية والإمامة، وأن الخطر الداهم الناتج عن نجاح مشروعه سينصر الثورة في صنعاء واليمن كلها وأنها ستزحف إلى جميع العواصم والبلدان العربية وستكتسح نفوذ أسيادها المستعمرين، فلم يسع كل أولئك الأعداء للثورة والجمهورية إلا التآمر والغدر بالأستاذ الزبيري، فما إن وصل إلى قبيلة ذو حسين وذو محمد من برط من قبائل الجوف فكمن له شخصان مستأجران من الجانب الملكي ومن محمد بن الحسين بن الإمام يحيى حميد الدين بالذات فاغتالاه في أول شهر ابريل عام ١٩٦٥م وقد اختاروه بالذات رغم أن زملاءه الإرياني والنعمان وغيرهما كانوا حوله سائرين إلى إقناع قبائل أخرى بالسلم ونصرة الثورة والجمهورية، ففاضت روحه الطاهرة وروى بدمائه وطنه الحبيب وأوفى بوعده كما قال:

بحثت عن هبة أحبوك يا وطني
فلم أجد لك إلا قلبي الدامي

ومع علم الرجعية والاستعمار بمكانة بقية شخصيات زملائه في دنيا النضال والحرية إلا أنهم أيضاً يعلمون أن مكانة الزبيري وتأثيره الشعبي أكثر من غيره وأشد وقعاً من الجيوش والطائرات والصواريخ!!

وكان الزبيري ؟ رحمه الله ؟ أعلم بأهمية شخصيته وأثر قوله نثراً وشعراً.. فقال:

مهجة القلب لو أذيعت لقالوا
مر عبر الأثير نصل يماني

وقال:

يومٌ من الدهر لم تصنع أشعته
شمس الضحى بل صنعناه بأيدينا
قد كوّنته ألوف من جماجمنا
وألفته ألوف من مآسينا

وقال:

إن القيود التي كانت على قدمي
أضحت سهاماً من السجّان تنتقمُ
إن الأنين الذي كنا نردده
سراً غدا صيحة تصغي لها الأممُ

وقال:

يا قادة العرب والإسلام قاطبة
قوموا فقد طال بعد الفجر نومكم
وابنوا لنا في سماوات العلا حرما
نطوف حول ثرياه ونستلمُ

ولقد شهد له عميد الأدب العربي د/ طه حسين في الجامعة ولما يزل الزبيري طالباً بكلية دار العلوم بمصر فقال: لله درُّك يا يماني فإن هذا أطمح شعر قالته العرب.

وأتذكر بأنه عند وفاة الإمام أحمد وإرسال جمال عبدالناصر تعزيته فيه إلى ابنه البدر ونصحنا المصريون لإرسال تعزية إلى البدر بقصد استثنائه تمهيداً لرجوع الأحرار إلى الداخل الذي بدأ الأعداء لقيام ثورة ضده في الداخل فنكون على مقربة من ذلك.

فحرر الأستاذ النعمان تعزية جادة للبدر فنصحه فيها بالإصلاح والتطور ونحو ذلك، ووقعناها جميعاً فرفض الأستاذ الزبيري التوقيع عليها وأقسم أنه لن يجامل البدر أو غيره من الأئمة وأنه سيظل يجاهدهم حتى النصر أو الشهادة.

وكان ؟ رحمه الله ؟ عريق الإيمان بالحرية والتمسك بالنضال من أجلها وصامداً في مواجهة معاكسة الظروف وتقلب بعض الأشخاص عن مبادئهم.. حتى جاء علينا وقت بلغ بنا اليأس مبلغه، فقال له البعض بأن الاتحاد اليمني ورجاله قد عجزوا عن مواصلة نضالهم، فقال إن الأمل في الوطن لا يخيب ولا يجوز التوقف عن النضال لتحريره والمثل يقول لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس ولكني أقول اعمل حتى تيأس فإذا يئست فاعمل وأنت يائس فبعد كل عسر يسرا.. والرائع أنها لم تمض أشهر اليأس حتى تفجّرت الثورة السبتمبرية المباركة فقال هل أمنتم الآن بأن الإيمان بالشعب يهزم اليأس والمتخاذلين!؟

ولي معه ذكريات طيبة عن طيبته وكرمه وخفّة روحه واستقامته وزهده ووطنيته وتسامحه وإيمانه بالله والوطن والشعب والحرية ؟ رحمه الله تعالى.